المعجم التّاريخيّ للّغة العربيّة بين التّأسيس النّظريّ والتّطبيق العمليّ.

د. وهيبة وهيب.

المركز الجامعيّ مغنيّة. الجزائر

ملخّص:

تفنّن الإنسان على مرّ العصور في تأليف المعجمات وفي تصنيف المفردات وتركيبها، تدعوه إلى ذلك الحاجة وتطوّر الحياة، وكذا تطوّرات اللّغة؛ بما تخضع له من تغيّرات أو مؤثرات لاسيّما في هذا العصر؛ حيث التّفجّر العلمي والتّقني والحضاري، وشيوع الاتّجاه التّأثيلي، ونتيجة لهذه العوامل فقد سارعت الأمم المتطوّرة إلى إنجاز معجمٍ تاريخيٍ يحفظ ألفاظها ويسجّل حياتها، ويكون انعكاسا للتّحوّلات العلميّة والفكريّة التي شهدتها.

وعلى الرّغم من مكانة اللّغة العربيّة بين اللّغات وثرائها اللّغوي، فإنّها تفتقر - إلى اليوم - إلى معجم تاريخي يضمّ ألفاظها وأساليبها وتطوّر مبانيها ومعانيها عبر مختلف العصور.

وهو ما دفعنا كمتطلّعين إلى هذا المسعى الحميد أن نحرّر بحثا، نسير فيه وفق خطّة موزّعة على تمهيد وثلاثة مطالب، نقف في أوّلها على دوافع تأليف المعجم التّاريخيّ، وفي ثانيها على تصوّر بناء هذا المعجم، وفي ثالثها على أهمّ المحاولات والمبادرات التي شهدتها السّاحة العربيّة لإنجاز هذا المشروع.

الكلمات المفتاحية:

المعجم التّاريخي - اللّغة العربية - الألفاظ - التّطور.

Summary:

Throughout the ages, human worked in writting lexicons, classifying and structuring of vocabulary, pushed to this work by the need and the evolution of life, as well as the development of the language; including subject to changes or effects, especially in this era; period of scientific, technical and cultural development, and the spreading of the historical movement, and as a result of these factors developed nations had rushed to the completion of a historical lexicon in order to save her terms and recorded her life, and be a reflection of the scientific and intellectual progress they had ever seen.

Despite of the Arabic language status between the other languages, it (Arabic) still lacks to a historical lexicon which includes its terms, styles and structures and meanings across different eras.

This push us as searchers in this endeavor to realize a project ,in which we are moving according to a plan devided into an introduction and smooth demands.

At first we discuss the reasons of writing this historical lexicon, and in the second we try to visualize the structure of this lexicon, and in third we stand at the most important attempts and initiatives witnessed by the Arab arena to accomplish this project.

Keywords:
Historical lexicon – Arabic – terms – Development

تمهيد:

إنّ اللّغة العربيّة ليست بدعاً بين اللّغات العريقة في حاجتها إلى معجمٍ تاريخيّ، بل هي أجدرها، لكونها من أطول اللّغات عمراً وأوسعها ساحةً وأغناها تراثاً، فيكون هذا المعجم ديواناً شاملاً بجمع مفرداتها ومعانيها وأساليب استعمالها، وخزانةً لأفكار أهلها ومشاعرهم، ولما أنجزوه من تقدّمٍ حضاريّ، ويكون إلى جانب ذلك ديواناً للأحداث الكبرى من فتوحٍ وحروبٍ وهجراتٍ، ولعلاقات المسلمين بالشّعوب الأخرى، ولتأثيرهم فيها وتأثّرهم بها، فهو الوجه الآخر للحياة الإنسانيّة بكلّ تجلّياتها المادّية والرّوحيّة.[1]

وعلى الرّغم من أنّ صناعة المعجم العربي، هي أقدم الصّناعات المعجميّة في اللّغات الحيّة وأغزرها وأغناها - إذا علمنا أنّ أوّل معجمٍ عربيٍّ متكاملٍ وهو معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175 ه) صُنّف في القرن الثّامن الميلادي- فإنّ اللّغة العربيّة لا تتوفّر على معجمٍ تاريخيٍّ حتّى الآن.

ولقد ظهرت المعاجم التّاريخيّة في أوروبّا، نتيجةً لازدهار اللّسانيات الحديثة في النّصف الثّاني من القرن الميلادي، فمن أبرز فروع اللّسانيات في ذلك القرن، علم اللّغة التّاريخي، حيث يمثّل المعجم التّاريخي الجانب التّطبيقي لهذا العلم، الّذي ظهر نتيجة إيمان اللّغويين بأنّ اللّغة كالكائنات الحيّة التي تولد، وتنمو، ورأوا انطلاقاً من هذه الرّؤية الطّبيعيّة التّطوّريّة، ضرورة وضع معجمٍ تاريخيٍّ، يساير كلّ لفظٍ من لدن مولده، فيبحث في أصل الكلمة، وتتبّع حياتها واستعمالها عبر العصور، وما يطرأ عليها من تغييرٍ اعتماداً على النّصوص التي وردت بها.[2]

وظهر أقدم معجمٍ من هذا النوع في اللّغة الانجليزية على يد "شارلز رشاردسون " بين عامي (1836 - 1837م)، ويعدّ معجم أكسفورد التّاريخي للّغة الإنجليزية أشملها وأفضلها؛ فقد استغرق تأليفه سبعين عاماً، قبل أن يتمّ عام 1928م، وهو يسجّل الكلمات كلّها من القرن السّابع عشر حتى القرن العشرين.[3]

أمّا على الصّعيد العربي، فقد تأثّر بعض اللّغويين بهذه النّظريّة الطّبيعيّة في التّطوّر، فطبّقوها في أبحاثهم اللّغويّة، مثل جرجي زيدان في كتابه "اللّغة العربيّة كائنٌ حيٌّ"، كما برز هذا التّأثّر

عند الشّيخ أحمد رضا في مقدّمة معجمه "متن اللّغة" وفي كتابه "مولد اللّغة"،[4] هذا على الصّعيد اللّغوي، أمّا على الصّعيد المعجمي فلا يوجد معجمٌ شاملٌ كاملٌ للّغة العربيّة حتى الآن.

أوّلاً: دوافع وأهداف تأليف معجمٍ تاريخيٍّ للّغة العربيّة:

يمكن تصنيف دوافع تأليف معجمٍ تاريخيٍّ للّغة العربيّة في النّقاط التّالية:

◆ وقوف المعاجم العربيّة عند فترةٍ زمنيّةٍ لم تتجاوزها، وهي القرن الثاني بالنّسبة لعرب الحواضر، والرّابع بالنّسبة لعرب البوادي، ممّا أصاب اللّغة بالجمود وعاقها عن التّطوّر، إذ اقتصر جهد العلماء، بعد ذلك على تبويب هذه المادّة وعرضها بطرقٍ مختلفةٍ، وبذلك أغفلوا ناحيةً مهمّةً من نواحي الدّراسات اللّغويّة، هي ناحية التّطوّر اللّغوي.[5]

◆ إهمال المولّد وعدم اعتباره من اللّغة حتى ضاع علينا كثيرٌ من الألفاظ والمعاني التي ابتكرها العبّاسيّون للمظاهر والحضارة الجديدة، وإن تلافت كتب لحن العامّة والخاصّة بعض نواحي هذا النّقص، ولكنّها تركت أكثره لأنّها لم تكن معاجم تريد الاستقصاء.[6]

ومن هنا أصبحت الحاجّة ماسّة إلى شيئين ضروريّين:

1- البحث عن هذه الألفاظ والاستعمالات التي ظلّت خارج المعاجم الفصيحة المتوارثة واستخراجها من مظانّها باعتبارها جزءاً مهمّاً من تاريخ اللّغة العربيّة لا بدّ من معرفته ودراسته.

2- محاولة ربط المداخل المعجميّة بتواريخ ظهورها واستعمالها.

والمعجم التّاريخي بهذا الوصف، بمثابة سجلٍّ شاملٍ لمفردات اللّغة العربيّة أصيلها ودخيلها ومولّدها، منذ بداية عصورها الموثّقة حتى الآن.

فهدف هذا المعجم يتمثّل في الوصف الدّقيق لمعنى الكلمة، وأصلها، وتاريخها، وتحقيق ما يلي:

1- يبيّن كلّ كلمةٍ: متى صارت عربيّةً وبأيّة مدلولٍ، والتّطوّر الّذي لحقها في المبنى والمعنى، وأيّ استعمالاتها هُجر على مرّ الزّمن، أو الاستعمالات الجديدة وكيفيّتها وضبط زمنها.

2- تصوير هذه الحقائق بمجموعاتٍ من الشّواهد، يمتدّ زمنها منذ استخدامها الأوّل الّذي ظهرت فيه الكلمة إلى آخر ما وصلت إليه.

3- معالجة أصل كلّ كلمةٍ على أساس الحقيقة التّاريخيّة وحدها، ووفقاً لمناهج علم اللّغة الحديث ونتائجه.[7]

ثانياً: منهجيّة بناء المعجم التّاريخي للّغة العربيّة:

يمكن تلخيص خطوات تصنيف المعجم التّاريخي، بعد الاطّلاع على عددٍ من الدّراسات المتعلّقة بتأليف المعاجم التّاريخيّة في اللّغات العالميّة كالتّالي:

1. تحديد عصور تطوّر اللّغة: وهذا التّحديد لا يكون بصورةٍ اعتباطيّةٍ، وإنّما يراعي الحدود التّاريخيّة عند التّحوّلات الثّقافيّة واللّغويّة الكبرى التي تؤثّر في ألفاظ اللّغة شكلاً ومضموناً؛ إذ

يتوقّف تسجيل التّغيّر الحاصل في مباني ألفاظ العربيّة ومعانيها، على تقسيم الزّمن الّذي عاشت فيه اللّغة - من بدايتها إلى نهايتها في العصر الحديث - إلى مراحل زمنيّةٍ محدّدةٍ، وقد تعدّدت رؤى مؤرّخي اللّغة العربيّة في تحديد مراحل حياتها أو عصورها، ومنهم من يحدّده على النّحو التّالي:

- العصر الجاهلي: عصر استواء اللّغة العربيّة الفصحى المشتركة بين قبائل شبه الجزيرة العربيّة، فيما يُعرف بلغة الشّعر الجاهلي، الّذي يرجع أقدمه إلى ما قبل الإسلام بنحو قرنين.

- العصر الإسلامي: منذ ظهور الإسلام إلى سقوط دولة بني أميّة سنة 750م / 132هـ.

- العصر العبّاسي: منذ بداية بني العبّاس حتى انهيارها وسقوط بغداد سنة 1258م.

- عصر الدّول والإمارات: من نهاية العصر العبّاسي حتى نهاية الدّولة العثمانيّة مع ظهور الاستعمار الأوروبي للعالم العربي في القرن 19م.

- عصر النّهضة الحديثة: من ولاية محمّد علي بمصر 1220هـ حتى اليوم.[8]

2. إعداد قائمةٍ بالمصادر والمراجع من المخطوطات والمطبوعات الموثّقة وتشمل هذه القائمة على عنوان المصدر، واسم مؤلّفه، وتاريخ العصر الّذي ينتمي إليه. وتتمثّل مصادر المعجم التّاريخي-عموماً - فيما يلي:

– النّصوص التي وصلتنا عبر حضارات العرب القديمة، وهي تمثّل الجوانب الحضاريّة بمختلف ألوانها الثّقافية والاجتماعية والدّينيّة.

– نصوص الشّعر الجاهلي والإسلامي والأموي والعبّاسي وصولاً إلى العصر الحديث.

– نصّ القرآن الكريم الّذي يمثّل العربيّة الفصحى.

– نصوص الحديث النّبويّ الموثّقة بالإسناد الصّحيح.

– نصوص لهجات القبائل العربيّة الضّاربة في القدم التي احتفظت بخصائص اللّغة العربيّة القديمة.

– المصنّفات في ميادين التّفسير وعلوم الحديث، والبلاغة والنّحو والصّرف والفلسفة، والاقتصاد والجغرافيا والفلك وبقيّة العلوم والمعارف التي أنتجتها العقليّة العربيّة على امتداد فترةٍ زمنيّةٍ بعيدةٍ، إضافة إلى ما وضعه علماء العرب في ميدان الصّناعة المعجميّة.[9]

3. إنشاء مدوّنةٍ لغويّةٍ محوسبةٍ: ويتمّ اختيار هذه المدوّنة من قائمة المصادر الموثّقة، على أن تكون متوازنة من حيث انتماؤها الموضوعي، والتّاريخي، والجغرافي، والاجتماعي فيجب أن تنتمي إلى جميع عصور اللّغة، وإلى جميع البلدان النّاطقين بها، وتغطّي جميع فروع المعرفة من أدبٍ وعلومٍ وفنونٍ.

4. استخلاص جذور الكلمات ومشتقّاتها والتّعبيرات التي تدخل فيها من المدوّنة اللّغويّة، فجميع ألفاظ مداخل المعجم الرّئيسة والفرعيّة يتمّ اقتباسها من المدوّنة اللّغويّة.

5. تكوين قاعدة شواهد موثّقة على مداخل المعجم: فيتمّ اختيار هذه الشّواهد من المدوّنة بحيث توضّح تطوّر معاني ألفاظ المداخل واستعمالاتها عبر عصور اللّغة.

6. تحرير مداخل المعجم: وذلك بإعطاء الشّروح اللّازمة المتعلّقة بتطوّر شكل الألفاظ ومعانيها، واستعمالاتها انطلاقاً من الشّواهد عليها.[10]

ثالثاً: أهمّ المحاولات لإنشاء معجمٍ تاريخيٍّ للّغة العربيّة:

لقد كان الوعي بحاجة العربيّة إلى معجمٍ تاريخيٍّ مبكّراً عند إنشاء مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة(1934)، فمرسوم إنشائه نصّ على أنّ من أغراض المجمع:"...أن يقوم بوضع معجمٍ تاريخيٍّ للّغة العربيّة، وأن ينشر أبحاثاً دقيقةً في تاريخ بعض الكلمات وتغيّر مدلولاتها"، وفي دور الانعقاد الأوّل ألّفت لجنة لتنفيذ الفقرة الخاصّة بالمعجم التّارخيّ، وكان من أعضاء المجمع آنذاك المستشرق الألمانيّ "أوجست فيشر" الذي شرح لأعضاء المجمع كيف وضعت الأمم الأوروبيّة معاجمها التّارخيّة، وقدّم بحثاً حول طريقة العمل فيه، وفي دور الانعقاد الثّاني قدّم إلى المجمع نموذجاً لمعجمه هو الثّلث الأوّل من مادّة(أخذ) مشفوعاً بمراجعه ورموزه، فنوقش هذا النّموذج ووافق عليه الأعضاء، وقرّر رئيس المجمع تأليف لجنة للعمل مع فيشر في مراجعة معجمه، وقبل أن يسافر إلى ألمانيا عام 1939م كان قد أعدّ مقدّمته والجزء الأوّل منه، وبعد اندلاع الحرب العالميّة لم يعد "فيشر" إلى مصر وتعذّر مواصلة العمل في المعجم، وفي سنة 1949م توفّي "فيشر" فقرّر المجمع طبع ونشر ما أعدّه "فيشر" من المعجم.[11]

ويمكن تلخيص المنهج الّذي رسمه فيشر لمعجمه على النّحو التّالي:

– الرّجوع إلى الواقع اللّغويّ المسجّل، والمحدّد بعصورٍ معيّنةٍ مع البدء بالكتابة المنقوشة المعروفة بنقوش النّمارة من القرن الرّابع الميلادي إلى نهاية القرن الثّالث الهجري، وهو القرن الّذي اعتبره المجمع اللّغوي منتهى ما وصلت إليه اللّغة العربيّة الفصحى من كمالٍ،[12] فيكون بذلك النّطاق الزّمني للمعجم التّاريخي حسبه هو ستّة قرون تقريباً من نقش النّمارة في ق 4م إلى ق 3هـ/ق 9م.

– ضرورة معالجة الكلمات من النّواحي السّبع التّالية: التّاريخيّة والاشتقاقيّة والتّصريفيّة، والتّعبيريّة، والنّحويّة، والبيانيّة، والأسلوبيّة.[13]

– تحديد المحيط اللّغوي الّذي تستعمل فيه الكلمة أو التّركيب، كلغة القرآن والحديث النّبوي، وأسلوب الشّعر والنّثر، والتّاريخ والفنون وغيرها، وفي هذا يقول فيشر: "يتناول الكلمات الموجودة في القرآن والحديث والشّعر والأمثال والمؤلّفات التّاريخيّة والجغرافيّة وكتب الأدب والكتابات المنقوشة والمخطوطات على أوراق البردى وعلى النّقود... وقد استثنيتُ من ذلك في الغالب الكتب الفنّيّة، إلاّ أني توسّعت في أخذ المصطلحات منها".[14]

– مراعاة ترتيب المعاني المتعدّدة للكلمة بتقديم المعنى العامّ على الخاصّ والحسّي على العقلي والحقيقي على المجازي ونحو ذلك.[15]

– ترتيب الكلمات كان حسب التّرتيب المألوف بحروف الهجاء العربيّة على اعتبار الحرف الأوّل والثّاني والثّالث أساساً، ويبدأ المادّة بذكر الفعل المجرّد ثم المزيد، وذكر الأسماء كلّها بعد الأفعال سواء كانت مشتقّةً أم جامدةً.[16]

– وحاول تنظيم ترتيب الصّيغ والمفردات تحت المادّة الواحدة، وأبان العلاقة بين المادّة العربيّة ونظيرتها من اللّغات السّامية الأخرى.[17]

– محاولة إتباع الشّرح باللّغة العربيّة بالتّرجمة المختصرة الإنجليزية أو الفرنسيّة زيادةً في الإيضاح.[18]

ونشير هنا إلى المصاعب التي حالت دون أن يستكمل المجمع اللّغويّ بالقاهرة مشروع المعجم التّاريخي الذي بدأه فيشر، والتي تمثّلت في طول المدّة التي عاشتها العربيّة واتّساع رقعة الأرض التي عاشت فيها، وأنّ المصادر التي ينبغي الرّجوع إليها لاستقراء مادّتها تكاد لا تنحصر.[19]

ومن المحاولات الجادّة في إنشاء معجمٍ تاريخيٍّ للّغة العربيّة ما قامت به الجمعيّة المعجميّة التّونسيّة، إذ انبثقت فكرة تأسيس هذه الجمعيّة من اهتمام المغاربة بالمجال المعجمي، باعتبار القاموس حاملًا لرصيدٍ معرفيٍّ متلاحقٍ، وهذا منذ مشاركتهم في إنجاز الرّصيد الوظيفي ثم الرّصيد اللّغوي العربي، وتأسّست هذه الجمعيّة بتونس سنة 1983م، وكان هدفها وضع أرصدةٍ وبنك معطيات للّغة العربيّة لتكون على غرار اللّغات الحيّة الأخرى.[20]

ويعتبر المعجم التّاريخي للّغة العربيّة من أهمّ القضايا المحوريّة التي أرّقت أعضاء هذه الجمعيّة، ومن المنجزات التي تُحسب للجمعيّة في هذا المجال الاجتهاد في تحديد مفهوم المعجم التّاريخي وتأسيس نظريّته وإنشاء مدوّنته، فقد خصّته بندوةٍ علميّةٍ دوليّةٍ سنة 1989م موضوعها: المعجم العربي التّاريخي، قضاياه ووسائل إنجازه، ثم بندوتها العلميّة الأولى للقاموسيّة سنة 2003م وموضوعها: قضايا المعجم العربي التّاريخي.

ولقد استطاع هذا المشروع وضع المدوّنة المعجميّة المؤرّخة للعصر الجاهلي بالشّعراء وبالنّصوص الشّعريّة خاصّةً، وهي نصوصٌ منتميةٌ إلى أربعة قرونٍ من حوالي 200 م إلى 609 م انطلاقاً من أقدم ما عثر عليه فريق البحث من نصوصٍ موثّقةٍ.[21]

وكانت هذه المدوّنة نتيجة استقراءٍ معجميٍّ مرّ بمرحلتين:

1. مرحلةٌ أُستقرِئت فيها نصوصٌ شعريّةٌ لتسعين شاعراً جاهليّاً، قد كوّن الرّصيد المعجمي لكلّ منهم مدوّنةً خاصّةً به، وقد اجتمع من هذه المدوّنات رصيدٌ عامٌّ من الوحدات المعجميّة 58023 طبعت على 58023 جذاذة معجميّة.

2. مرحلةٌ ثانيةٌ عولجت فيها المدوّنة العامّة المتتابعة فحذفت منها الاستعمالات المكرّرة واحتُفظ بالوحدات المعجميّة في أقدم استعمالها، ثمّ بالمعاني الثّواني المولّدة المسندة إلى الوحدات المعجميّة بعد ظهورها الأوّل.[22]

خاتمة:

بدأ التّفكير في المعجم التّاريخي للّغة العربيّة منذ فترةٍ طويلةٍ، لما له من أهميّةٍ بالغةٍ، فهو بمثابة سجلٍّ للثّقافة والتّاريخ والحضارة والمعارف العربيّة والإسلاميّة، وذخيرة واسعة لمفردات اللّغة العربيّة منذ نشأتها الأولى إلى يومنا هذا. وعملٌ ضخمٌ مثل هذا يستوجب الاستعانة بمئات العلماء في كلّ المجالات من لغويّين وتقنيّين وباحثين ومحرّرين.كما يتطلّب الاستفادة من الصّناعة المعجميّة الحديثة، والاقتداء بالتّجارب ذات الخبرة، لاسيّما الأجنبيّة منها مثل معجم أكسفورد التّاريخيّ.

الهوامش:

[1] ينظر: المعجم التّاريخي للّغة العربيّة وثائق ونماذج، محمّد حسن عبد العزيز، دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة، ط1، 2008م، ص40.

[2] ينظر: التّطوّرات المعجميّة والمعجمات اللّغويّة العامّة العربيّة الحديثة، صافية زفنكي،منشورات وزارة الثّقافة، دمشق، دط، 2007م، ص78.

[3] ينظر: المصدر نفسه، ص 78.

[4] ينظر: التّطوّرات المعجميّة، صافية زفنكي، ص 79.

[5] ينظر: مختارات لسانيّة، زين كامل الخويسكى، دار المعرفة الجامعيّة، الأزاريطة، دط، 2007م، ص 116

[6] ينظر: المعجم العربي نشأته وتطوّره، حسين نصّار، دار مصر للطّباعة، ط1، 1988م، ج604/2

[7] ينظر: المعجمات العربيّة ، دراسة منهجيّة، محمّد علي عبد الكريم الرّديني، دار الهدى، الجزائر، ط2، 2006م، وينظر: المعجم العربي نشأته وتطوّره ،2/ 615.

[8] المعجم التّاريخي، محمّد حسن عبد العزيز، ص 175.

[9] ينظر: علم اللّسانيّات الحديث، عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء للنّشر والتّوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 2002م، ص 591 – 592.

[10] ينظر: علم المصطلح، أسسه النّظريّة وتطبيقاته العلميّة، علي القاسمي، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 2008، ص 711-712-713.

[11] ينظر: المعجم التّاريخي، محمّد حسن عبد العزيز، ص: 52.

[12] ينظر: المعجم العربي، نشأته وتطوّره، حسين نصّار، 587/2.

[13] ينظر: جدل اللّفظ والمعنى، مهدي أسعد عرّار، ص 184.

[14] المعجم العربي، حسين نصّار، 588/2.

[15] ينظر: مختارات لسانيّة، زين كامل الخويسكى، ص 131.

[16] ينظر: المعجم العربي، حسين نصّار، 589/2.

[17] ينظر: في علم اللّغة العام، شرف الدّين الرّاجحي، دار المعرفة الجامعيّة، دط، 2008م، ص 131.

[18] ينظر: مختارات لسانيّة، زين كامل الخويسكى، ص132.

[19] ينظر: المعجم التّاريخي للّغة العربيّة وثائق ونماذج، محمّد حسن عبد العزيز، ص236.

[20] ينظر: مقالات لغويّة، صالح بلعيد، دار هومة، الجزائر، دط، 2004م، ص111.

[21] ينظر: المعجم التاريخي للّغة العربيّة، محمّد حسن عبد العزيز، ص236 – 237.

[22] ينظر:المعجم التّاريخي للّغة العربيّة، محمّد حسن عبد العزيز،ص237.